# الجرأة الأدبية

بقلم الاستاذ أحمد صفروه

— ١ —

من اسمى الخصال التي يتحلى به الافراد وتكون سبباً في رقي الامم الجرأة الادبية . وهي احدى انواع الشجاعة وابعدها اثراً في تطور الشعوب. وقد جعلت في طبيعة الانسان منذ بدء تكوينه ثم عرض لها من الاسباب والدوافع ماسار بها حيناً في طريق النمو حتى بلغت الذروة . وآونة في منحدر التضاؤل وقرارة الانهيار حتى اصبحت اثراً بعد عين .

وهي تكون في سكان البادية اقوى منها في سكان الحواضر لتأصل الشجاعة في أهل البادية وكونها شرطاً جوهريا من شروط حياتهم فان كل فرد من هؤلاء مكلف بحماية نفسه والذود عن حياضه .

دون أن يتكل في شيء من ذلك على احد سواه . اما اهل الحواضر فانهم يمارسون اعمالهم باطمئنان لوجود الحكومات التي تسهر على نشر الامن والفصل بين الخصومات والمنازعات . وتتولى صيانة الاموال والانفس . ولهذا تختلف الشجاعة الفطرية في البدوي عنها في الحضري .

وباختلاف نوع الحكومة في المدن تبعد او تقترب مسافة الفرق بينها وبين سكان البوادي من حيث الشجاعة فالأمصار التي تديرها حكومة فردية تموت في سكانها روح الشجاعة بينما الأمصار التي تتولى شؤونها حكومة دستورية تنمو في افرادها هذه الروح وتزداد قوة كلما حدت سلطة الحكومة ووسعت سلطة الشعب فاذا اردنا البحث عن تأثير امتنا العربية بهذه المزية على ضوء هذا التقسيم وجدنا انها تقلبت عليها ادوار ثلاثة .

١ — دور البداوة ونعني به زمن الجاهلية وشطراً من زمن البعثة .

٢ — دور التحضر ونعني به الشطر الآخر من زمن البعثة وعهد الخلفاء الراشدين .

٣ — دور الحضارة والحكم الفردي ونعني به مابعد عهد الخلفاء الراشدين .

فالدور الأول كانت اكثرية العرب الساحقة فيه من سكان البادية فكان لاحدهم ينفرد بماشيته في المفاوز والفلوات معتمداً على قوة بأسه ومضاء سيفه في صد ضواري الحيوان ورد عادية اللصوص والفتاك وربما قضى اكثر حياته وحيداً في البيداء . يتحرى بماشيته منابت الكلأ ومواردها المناهل والغدران وهو بين صراع ونزال لاوزر له الا قوة جنانه وحد سنانه . واذا تمت فيه هذه الملكة الفطرية وبلغت ذروتها فمحال ان يجد الخوف الى قلبه سبيلا . وبعيد كل البعد ان يرى مايخالف هواه دون ان يعارضه . فهو لايسكت على ضيم ولا يغضي على قذى ولا يطأطئ رأسه اذا سيم الخسف .

فهذا السموءل بن عاديا لم يرهب قوة الملك الغساني ثم آثر ان يموت ابنه على ان يستخذي له ويسلم اليه ودائع جاره .

وهذا الحارث بن ظالم يقتل خالد بن جعفر وهو في جوار الملك الأسود لاهانته اياه في مجلس مضيفه . وهذا عمرو بن كلثوم يفتك بالملك عمرو بن هند في عقر داره لأنه شعر باهانته له وهذا هانئ بن مسعود يعرض نفسه لغضب كسرى ولا يسلمه ودائع النعمان ثم يزج نفسه وحلفاءه في معركة رهيبة مع الفرس في ( ذي قار ) وما ذاك الا لأنه رأى في تسليمه ودائع النعمان مساً لكرامته . والموت خير من الاهانة عند العربي . وقد بالغ في المحافظة على هذه الكرامة

---

الرأسمالية حس اندفاعي جرأ وجده في نفس الرأسمالي حب المغامرة في سبيل الربح ، الرأسمالية عامل نفسي في الدرجة الأولى ، روح تدفع إلى العمل ، وإلى الكسب ويتبين لنا هذا حين نستشهد بكبار الرأسماليين في امريكا واوروبا وفي الشرق العربي وكيف أن اكثرهم كان من أبناء الفقراء وكيف أن كلا منهم يمتاز بروحه الوثابة وبنفسه المخاطرة وبماله الذي لايهدأ . فلا عجب بعدئذ أن نقول : الرأسمالية هوى يقذف بصاحبه إلى الجحيم ، أو إلى النعيم .

حلب

عمر كركوكي

وغلا حتى اعتبر الاهانة عاراً وقال كلمته المأثورة : ( النار ولا العار ) فهو اذن لايقبلها من الغرباء ولامن الاقرباء ايضاً .

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى
وفيها لمن خاف القلى متحول

مهلا بني عمنا مهلا موالينا
لاتنبشوا بيننا ما كان مدفونا

لاتطمعوا ان تهينونا ونكرمكم
او ان نكف الاذى عنكم وتؤذونا

ياعمرو الا تدع شتمي ومنقصتي
اضربك حيث تقول الهامة اسقوني

اني ابيّ ابيّ ذو محافظة
وابن ابيّ من ابيين

هكذا كان العرب في الدور الاول ابان بداوتهم : صدق وشجاعة وصراحة واقدام . لايهابون اسداً مسطوته ولا ملكا لقوته ولا كبيراً لسنه ولا قريباً لقرابته . على ان هذا الدور لم يسلم من بعض القضايا التي مست بها الكرامة الفردية دون ان يستطاع الدفاع عنها او الطلب بدمها وقد حصلت هذه في بصرى والحيرة اللتين كانتا في ذلك الحين عاصمتين لدولتين عربيتين . ولكن ملوكها اخذوا ذلك عن مواليهم المستندين في الزمن الذي سبق البعثة كان للرومان اعظم دولة في الغرب وقد استعمرت قسما كبيراً من آسيا وافريقيا فاحتلت سوريا وفلسطين ومصر وطرابلس وبرقة وتونس والجزائر . وكانت فارس اعظم دولة في المشرق . وقد احتلت اليمن والعراق ، وبقيت الدولتان زمنا في نزاع فعينت الروم اميراً عربيا من بني غسان في بصرى لخدمة مصالحها في الجزيرة العربية وعينت الفرس اميراً عربيا في الحيرة للغاية نفسها ، وكان ملوك هاتين الدولتين يأتمرون باوامر اوليائهم من الروم والفرس فكانت هذه العادة المقوتة عند العرب هدية اجنبية هبطت الى جزيرتهم عن طريق هاتين الدولتين . واهم مايذكر من هذه الحوادث تخصيص ملك الحيرة المنذر بن امرئ القيس يومين في السنة للنعيم والبؤس فاول من يقابله يوم نعيمه يغدق عليه الجوائز واول من يقابله يوم بؤسه يقتله مهما سمت منزلته وقد جرى على هذه العادة دهراً لم ينكرها عليه احد ثم ابطلها لاسباب لامجال لذكرها بعد ان ذهب ضحيتها جماعة من اشراف العرب كعبيد بن الابرص وغيره .

والدور الثاني يبتدئ عند انتشار الاسلام في الجزيرة فقد قوى فيهم هذه الناحية الخلقية فيما قواه فالتفوا حول الرسول وفرضت عليهم اطاعته واطاعة اولي الامر قال تعالى : ( واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم ) كما فرض على الرسول واولي العدل والتشاور والتراحم فقال تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » وشاورهم في الامر ؛ وامرهم شورى بينهم ، رحماء بينهم ، لله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وذلك لتبقى فيهم ملكة الشجاعة سليمة قوية ما دام العدل والتراحم والاستشارة . وتظهر هذه الصراحة والحرية والعدالة في كثير من مواقف الرسول يحملها على الجرأة الأدبية التي يسمى لتقويتها في ابته فقد عورض ونوقش في المكان الملائم للقتال في وقعة بدر . ثم اخذ آراء اصحابه في الاسرى بعد النصر فاختلفت الآراء وقد نادى في ذلك اليوم في جيشه ألا يمس عمه العباس بادي لان المشركين اخرجوه معهم كرهاً فقال احد الصحابة نقتل آبائنا ونترك العباس لئن لقيته لاقتلنه فسمعه الرسول وعدل بوجهه عنه ولم يؤاخذه ، وندم الرجل بعد ذلك .

وفي وقعة الخندق عارض رئيسا الانصار في مصالحة قريش على ثلث من تمر المدينة وفي صلح الحديبية انتقد فريق من المسلمين بعض شروطه وشافه بعضهم لرسول بكلام تجاوز فيه حده فحمل ذلك الرسول على الاخلاص والجرأة الادبية وفرق الرسول غنائم حنين على مسلمة الفتح والمشركين الذين ساعدوه وحرم المهاجرين والانصار فسخط الانصار وتكلموا في الامر . فلم يؤاخذهم بل جمعهم وارضاهم من نفسه وهكذا كان « ص » طول حياته يغذي هذه الروح وينميها حتى قبضه الله اليه .

وكذلك كان الامر في عهد الخلفاء الراشدين ان لم نقل ان الجرأة الأدبية ازدادت قوة لما هو معلوم من عصمة الرسول بتسديد الوحي وكون معارضتها اخف وطأة

لجلال مركز النبوة ولتصريح الخلفاء بقولهم: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . اطيعوني ما اطعت الله ورسوله .

فالخلافة الاولى على قصر مدتها قد تخللتها انتقادات جمة اهمها معارضة الزهراء في منعها ميراثها ، ومعارضة عمر (رض) في تأمير خالد والعفو عنه بعد قتل مالك بن نويرة ، ومعارضة المسلمين في تأمير اسامة بن زيد . ومعارضة جماعة من المسلمين في استخلاف عمر « رض » وهذه كلها تدل على مبلغ الجرأة الادبية في عهد الخلافة الاولى .

وفي الخلافة الثانية اشتدت هذه المعارضات وتجلت الصراحة بأجلى مظاهرها وكان الخليفة يغذيها . خطب يوما فقال : من وجد في اعوجاجا فليقومه . فاجيب بما اجيب ..

عاقب على الظلم والخيانة وعزل وقاسم على الاموال وسجن وتناول النقد اكثر عماله وامرائه ولم يسلم هو نفسه من نقد الناقدين وكان يتقبل ذلك بقلب رحب حبا منه بالعدل وتغذية منه لهذه الروح التي هي ضرورية لحياة الامم .

ومن الطف ما نقل عنه في ذلك تشدده في امر المهور وخطابه ورد المرأة عليه ، ورجوعه عن فكرته وفي الخلافتين الثالثة والرابعة ازدادت المعارضة حدة لكنها اخذت اتجاها آخر بسبب التفاف اسرة الخليفة الثالث حوله وتأثيرهم عليه بحصر السلطة فيهم وهنا اخذت المعارضة شكلا مزعجا سلت فيها السيوف وتتابعت حوادث واتهت بطي التاريخ صفحة الخلفاء الراشدين ونشر صفحات جديدة من ملك عضود تعتدل وتلتوي فيها شيء من التسامح وفيها شيء من الشدة ، وفيها شيء من الكرم وفيها شيء من الاثرة ، وفيها شيء من المجاملة والشورى ، وفيها شيء من الاستبداد والتحدي على الرضا بالواقع ، وترك الملوك وشأنهم كما كان الروم والفرس يسوسون رعاياهم ..

وكان لمؤسس هذه الدولة قصص طريفة جدا من هذا النوع تدل على دهاء وبراعة في السياسة والادارة فهو الذي قام بدور التحوير التدريجي قيام الحاذق الفطن ، اقرأ محاوراته لافراد بني هاشم ؛ كعقيل وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين ثم اقرأ محاوراته مع رؤساء العراق كالاحنف وجارية بن قدامة وعدي بن حاتم وقيس بن سعد والنساء الوافدات ثم اقرأ محاوراته لاتباعه كمروان وزياد والمغيرة وعمرو بن العاص والنعمان بن بشير يتضح لك من قراءتك انه يحاول بمهارة ان يقضي على هذه الروح في الأمة والرجوع بها الى عهد الاكاسرة والقياصره . ويتضح لك انه لم يعن بالفشل في محاولاته . ولم يتهيأ له القضاء على هذه الروح قضاءاً مبرما

بل كان كثيراً ما يميل بهم الى رأيه و كثيراً ما يأبون عليه الانقياد ويعطرونه وابلا من انتقاداتهم بأفئدة جريئة وألسنة حداد ، واليك بعض هذه النماذج

١ـ عتب على امير في شيء فانكره فقال بلغني عنك الثقة فاجابه : ان الثقة لا يبلغ

٢ـ عُد عليه ذات يوم ذنوبا فقال : ان القلوب التي ابغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا ، ولئن مددت الينا فترا من غدر لنمدن باعا من ختر.

٣ـ تظلمت اليه امرأة فقالت : ان الله سائلك عما افترض عليك من حقنا هذا فلان « عامله » قدم بلادي وقتل رجالي واخذ مالي ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فاما عزلته فشكرناك واما لا فعرفتاك

٤ـ باحث زعماء الامة في نقل الملك بعده لولده فقال له احدهم نحن نخيرك بين ثلاث

١ـ ان تترك الامر للامة

٢ـ ان ننتخب رجلا من غير اهلك .

٣ـ ان تصير الأمر لستة من قريش يختارون واحداً منهم ؛ واما ان تجعلها وراثية كسروية فهذا ما لا نرضى به

ومن الحق ان نقول ان قيام عددوا فر من زعماء الامة امثال حجر بن عدي واصحابه ، والحسين بن علي ، واهل المدينة واهل الكوفة وآل الزبير وعبد الرحمن بن الاشعث وزيد ابن علي وآل المهلب ، والتضحية بنفوسهم في ظروف متفاوتة كانت اجوبة صريحة على تلك المرهقة ، وقد حدّت كثيراً من كبريائها وغطرستها ؟

« يتبع »

دمشق

أحمد صدوق